

جبر ضومط وتجربة تحديث البلاغة

Jaber Dhomit and the Rhetoric Renewal Endeavour

شبايكي توفيق^{1*}، أ. د. زرفاوي عمر²¹ جامعة العربي التبسي - تبسة - الجزائر ch.toufik12@gmail.com² جامعة العربي التبسي - تبسة - الجزائر abokoute2019@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2021/10/02 تاريخ القبول: 2022/01/31 تاريخ النشر: 2022/01/31

Abstract:

Arabic rhetoric has known vicissitudes, even inertia since the fifth century hijiri. As philosophical and logics issues integrated its intimacy, its structures have become since then, hard to cope with. Therefore, scholars, in the modern and contemporary era, have been interested in the rhetorical heritage to give rise to an emergence of a considerable body of research. Advocates of this field, tried to go back over this heritage. This study deals with the topic of modernizing Arabic rhetoric, and the efforts of Jaber Dhomit, who denied the tradition of ancient Arabic linguistic and rhetorical methods, in favour of a newly holistic rhetoric away from the stagnation of rhetoric, prevailed since the fifth century hijiri. It is an endeavour in literary enlightenment and a step towards renewing the relationship with heritage through resumption. Besides, Jaber Dhomit is one of the early precursors to the critical movement in the Arab world at the end of the nineteenth century. Arabic rhetoric, then restored as a modern literary study to open new horizons in criticism and literary expression.

Keywords: Experience - update - rhetoric - Jaber Dhomit.

ملخص البحث:

لقد عرفت البلاغة العربية تعثرا وجمودا منذ القرن الخامس الهجري، وأصبحت قواعد جافة بسبب إقحام مسائل الفلسفة والمنطق فيها، ولذلك اهتم الدارسون في العصر الحديث والمعاصر بالتراث البلاغي وأسهم ذلك في ظهور العديد من الدراسات والأبحاث التي حاول أصحابها معاودة النظر في هذا التراث.

تتناول هذه الدراسة موضوع تحديث البلاغة العربية، وجهود جبر ضومط الرافضة لتقليد الأساليب اللغوية والبلاغية العربية العتيقة، والساعية إلى تجسيد نظرة بلاغية شمولية، للخروج من جمود البلاغة الذي عرفته خلال منذ القرن الخامس الهجري.

فهو تجربة في التنوير الأدبي وخطوة باتجاه تجديد العلاقة بالتراث من خلال الإحياء، وإحدى الإرهاصات المبكرة للحركة النقدية عند العرب في نهاية القرن التاسع عشر بالنسبة، ودراسة أدبية تحديثية استعاد من خلالها صاحبها البلاغة العربية لفتح آفاق جديدة في النقد والتعبير الأدبي.

الكلمات المفتاحية

جبر - ضومط - تجربة - تحديث - البلاغة -

مقدمة:

تتناول هذه الدراسة موضوع تحديث البلاغة العربية ، فمنذ أواخر القرن التاسع عشر بذل البلاغيون العرب جهودًا حثيثة للنهوض بحقل الدراسات البلاغية ، فقد كان ثمة إدراك جلي لأزمة البلاغة، سواء على مستوى إنتاج المعرفة أم تدريسها، وكان الموقف من التراث البلاغي منطقة تنازع وساحة صراع فكري بين المجددين. وخلال النصف الأول من القرن العشرين، قُدِّمت إسهامات مهمة، وصدرت كتابات متنوعة، ودُشِّنت مشروعات شاملة لتطوير الدرس البلاغي، وطُرحت دعوات لتجديده، وأخرى للثورة عليه.

ولما كان التراث البلاغي يشكل وجهًا من أوجه الانتماء إلى الحضارة العربية الإسلامية ، فإن معاودة القراءة تبقى عملية متواصلة بغية الحصول على إجابات تنهض همة الباحثين المتخصصين ، ولأجل ذلك كان هذا التراث يشكل تحديًا أمام الدارسين لما يكتنزه من أسرار وقضايا تتطلب بحق عقلا نقديا يحسن القراءة الاستكشافية التي تجعل مقولات التراث قادرة على استيعاب المعطيات العلمية الجديدة .

جمعت طلائع التحديث في نظرها النقدي بين الموروث النقدي القديم والمجلوب الحضاري الحديث فكانت بذلك بوابة أولى للتفاعل الثقافي وفتحة للمثاقفة النقدية بين التراث النقدي العربي والمنجز النقدي الأوروبي، وبالموازاة مع جهود الإحيائيين المصريين اتَّجه عدد من طلائع التحديث الشَّوام إلى تأليف مصنفات نقدية تحدَّث البلاغة العربية، وتُقرن الأدب العربي بالأدب الأوروبيَّة، فألَّف (جبر ضومط) كتابه (فلسفة البلاغة)، وفيه أفاد من كتاب (فلسفة الأسلوب) لهربرت سبنسر، «وكذلك غلبت الثقافة الفرنسية على كتاب (قسطاكي

الحمصي) (منهل الوَرَاد في علم الانتقاد) الصادر في العام 1907، [وقبل ذلك التاريخ] صدر كتاب (روحي الخالدي) في العام 1904 الموسوم بـ (تاريخ علم الأدب عند الإفرنج والعرب وفكتور هوجو)، [وفيه] دعا [صاحبه] إلى ضرورة الاطِّلاع على آداب الغرب من أجل تطوير أدبنا» (1).

لقد فتح أصحاب تلك المصنَّفات نوافذهم المعرفية على الغرب الحديث، وحاولوا عقد حوار خلاق بين الثقافة الوافدة والماضي التراثي، «فارتدوا إلى التراث العربي محاولين أخذ ما يمكن منه، وكانوا أيضا منفتحين على الثقافة الغربية فاستفادوا من الثقافة الإنجليزية والفرنسية» (2). وبخلاف ما يشيع الآن في الأوساط النقدية من أن البداية الحقيقية لتأسيس مدرسة نقدية عربية حديثة كان بظهور (جماعة الديوان) يذهب جيل الأقطاب المتأخرين إلى اعتبارها خطوات أولى في اتجاه تحديث النقد، فيرى "عز الدين إسماعيل" أنها «مقدِّمات وروافد تصب في سبيل التأسيس للمنهج في النقد العربي الحديث سبقت "مدرسة الديوان" التي يعدّها أغلب الدّارسين البداية الواضحة للنقد الحقيقي» (3).

ويؤكِّد "أمين العالم" أثناء تقيّصه الجذور المعرفية والفلسفية للنقد الأدبي العربي الحديث والمعاصر أنها «الإرهاصات الأولى للحركة النقدية خاصة منذ السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر» (4)، وقريب من ذينك الرأيين ينتهي (عادل الفريجات) - وهو يرصد تجليات النقد الأدبي الغربي في نقدنا المعاصر - إلى التأكيد أن تلك المقدِّمات والروافد تمثّل بواكير للنقد الأدبي المعاصر عند العرب (5).

وخلال تلمّسه الحدود ورسمه التّخوم بين النقد الأدبي وتاريخه، واستبصار منهجية الفكر

ونقدر ما يرى البعض أن هذا الاتجاه نحو التجريد النظري هو ممكن عقم الدرس البلاغي في تلك الفترة فإنّ البعض الآخر رأى في محاولات الاستفادة من الفلسفة والمنطق بداية لجعل البلاغة علماً، والحقيقة أنّ أزمة البلاغة العربيّة قد استفحلت حين ظهر التّعصب الشّدِيد لتلك المرحلة من تاريخ البلاغة في أوساط شيوخ الأزهر الشريف إلى درجة أضحي «العثور على كتاب "دلائل الإعجاز"، والاهتمام ببعض كتب الأدب التي لم تكن مباحة في النظام العام للتعليم في الأزهر... نقلة فكريّة هائلة» (9)

وبذلك الاتجاه صوب التعقيد النظري عزف البلاغيون اللاحقون عن استثمار المقولات البلاغية في رصد مواطن الجمال في النصوص الأدبيّة، وبدل الاهتمام بكلّ ما يحقّق المتعة الجماليّة انصرفت جهودهم إلى مذاكرة كتب التنظير البلاغي وشرحها وتلخيص شروحها. وأمام التحدّي الثقافي الأوروبي برزت محاولات إحياء الدرس البلاغي وتحديثه.

1.1- روافد التنظير البلاغي عند جبر ضومط:

يصنّف المهتمّون بالتأريخ للفكر العربي جبر ضومط (1859-1930م) (*) ضمن أعلام التنوير في العصر الحديث، وأدرجوا كتابه (فلسفة البلاغة) (1898م) مع تلك الجهود التحديثيّة للتفكيرين البلاغي والنقدي، «فمع بداية عصر النهضة أخذ النقد الأدبي ينتعش بعدما أصابه من خمول، وراح يسير في اتجاهين؛ أحدهما يعتمد على التراث النقدي القديم والاهتمام باللغة وضبطها وتصحيح أخطائها والبحث عن بلاغة الأدب العربي وشرح الدواوين القديمة، واتّجه الآخر إلى التّهلّ من مناهج النقد الأوروبيّة، فكان من ممثلي الاتجاه الأوّل أحمد

النقدي الأدبي العربي الحديث أكّد الروائي والناقد السوري (نبيل سليمان) أن (قسطاكي الحمصي) و(روحي الخالدي) الأجدر بحمل لقب (الناقد) من بين مجاليمهما، فيقول: «قبل أن أتابع ما بعد لحظتي (طه حسين) و(مندور) أود عبر مثالين الإشارة إلى الجهود السّابقة أو المجايلة لحسين على الأقل بهدف استكمال رسوم التأسيس للوحة المنهجية التالّية (...). المثال الأول هو قسطاكي الحمصي ذو الثقافة الفرنسيّة والأصوليّة، الذي خاض في النّقد نظراً وتطبيقاً، وشغله التأسيس على المثال الأوروبيّ، مثله في ذلك صنوه (روحي الخالدي)» (6).

جبر ضومط وتجربة تحديث البلاغة العربيّة

مرّت البلاغة العربيّة زمن المماليك والعثمانيين بمرحلة عجف إجرائي هيمن خلالها نمط من الدّراسات البلاغيّة ذات الطّابع التقنيّ، وذلك بسبب إفادتها اللامشروطة من المقولات المنطقيّة والفلسفيّة، وتعرف هذه المرحلة من تاريخ العلوم العربيّة بمرحلة (الشّروح والتلاخيص)، فخلالها شغف البلاغيّون «بطريقة السّكاكي وشرّاحه، وخلف على هذه الطريقة الخطيب القزويني، وسرعان ما جذب إلى كتابه (تلخيص المفتاح) الشّراح والمفسّرين فإذا بشروحه وحواشيه تستولي على ساحة البلاغة حتّى مطالع العصر الحديث» (7)، ويلخص (طه حسين) حال البلاغة العربيّة في أروقة الأزهر حينذاك فيحكي في الجزء الثاني من كتاب (الأيام) عن استعمال كلمتي (القشور واللباب) بين الدّارسين في مطلع القرن العشرين، «فقد كان المحبّون لدراسة التلخيص وبعض شروحه يرمون كل الكتب المناوئة ويعتبرونها قشورا» (8).

والأدب الإنجليزي، وكذا الرافد الديني المسيحي "الإنجيل" مع الاستشهاد بآيات القرآن الكريم والإعجاب المنهر بإعجازه وكذا الحديث النبوي الشريف» (14)، وإن جاز لنا الحديث عن تجربة في التثاقف بين العرب والغرب في العصر الحديث فإنه، «يمكن اعتبار إنتاج ضومط واحدا من نتائج [ذلك] التفاعل الثقافي الذي حصل عهد ذاك بين العرب والثقافة الأجنبية الوافدة على يد الإرساليات التبشيرية والصحافة العربية التي اهتمت بتقديم أشياء من الفكر الغربي إلى القارئ العربي، [فكان] نموذجا لمحاولة تنوير حضاري توسم فيها كثير من أبناء تلك الحقبة من التاريخ العربي الخير» (15).

وتبدو مظاهر ذلك التقاطع في الجانبين النظري والتطبيقي من الكتاب على حد سواء، فقد سعى (ضومط) عبر قراءاته الثرة «في أن يلتقط» بقعة ضوء من التراث الفكري العربي العربي، [وذلك باستعراض] التعريفات التي قدمها دارسون للبلاغة العربية مثل (عبد الحميد بن يحيى)، و(ابن المعتز)، و(جعفر بن خالد)، (...)، وما قدمه الجاحظ من مفاهيم اليونان والفرس للبلاغة» (16)، وهي التعريفات التي خلص منها إلى نتيجة مؤداها: «أن البلاغة تتحقق في العمل الأدبي عندما يتم نقل الفكرة أو المعنى من خلال الضروري فقط من الأبنية الأدبية» (17).

وبفضل إتقانه اللغة الإنجليزية واطّلاعه الواسع على الفكر الأوروبي وروائع آدابه ونقدها وتلمذته على يد (يعقوب صروف 1852-1927م (**)) استطاع (جبر ضومط) بلورة رؤيته التحليلية للبلاغة العربية بالإفادة من دراسة المفكر الإنجليزي المعروف (هربرت سبنسر) (فلسفة الأسلوب - The Philosophy of Style) التي خلص من خلالها إلى أن «استعمال الكلمات المشتقة من أصل إنجليزي هي

فارس الشدياق وإبراهيم اليازجي وحسين المرصفي]، ومن ممثلي الاتجاه الثاني جبر ضومط» (10).

وقد أُلّف هذا الكتاب بعد فترة ركود عاشتها البلاغة العربية نتيجة اكتفاء علماءها بالتقعيد النظري، وبذلك الانفتاح اللامشروط على الفلسفة والمنطق وعلم الكلام انقطعت صلة علومها بالنصوص الأدبية، وعوض استثمار علومها في البحث عن جمال النصوص اختار (السكاكي) ومريديه صوغ المقولات النظرية الصرفة «وجرت مياه ساخنة كثيرة، فترات ركود وفترات نهضة، وظلت البلاغة على حالها إلى أن شعر البلغاء العرب ودارسو الأدب العربي في النصف الأول من القرن العشرين بأهمية بعث البلاغة العربية مرة أخرى من مرقدتها، وبأهمية إحيائها، فكتب عدة مفكرين مجموعة من الكتب يدعون فيها إلى بعث البلاغة العربية» (11).

وبالموازاة مع تلك الدّعوات الإحيائية قدم التنويريون رؤى معاصرة لتحديث البلاغة العربية منها ما نجده في كتاب (فلسفة البلاغة) لجبر ضومط الذي شغل اهتمام البلاغيين و نقاد الأدب ومؤرخيها، فهو تجربة في التنوير الأدبي عند وجيه فانوس (2)، وخطوة باتجاه تجديد العلاقة بالتراث من خلال الإحياء، وإحدى الإرهاصات المبكرة للحركة النقدية عند العرب في نهاية القرن التاسع عشر بالنسبة لمحمود أمين العالم (12)، ودراسة أدبية تحليلية استعاد من خلالها صاحبها البلاغة العربية لفتح آفاق جديدة في النقد والتعبير الأدبي عند البازعي والرويلي (13).

وقد تنوّعت رواقد التنظير البلاغي عند (جبر ضومط) بتنوّع مصادر تكوينه الثقافي، ففي مجمل ما أُلّفه يتقاطع التراث العربي القديم مع المنجز النقدي الأوروبي الحديث، «شعر المتنبي الذي كان مفتونا به،

اللغويين والأدباء على احتذاء لغة السلف وأساليبهم الأدبية بوصفهم أفضل النماذج بلاغة وأكثرها فصاحة أثره في تأليف (جبر ضومط) كتابه (فلسفة البلاغة) (1898م)، فغاية الكتاب تتخلص -كما يذكر- في «أن يقدم للقارئ قاعدتين أساسيتين تمكنانه من توصيل أفكاره أو المعاني التي يريدتها للآخرين بأيسر وأقصر، أي بأكثر الأساليب بلاغة وفصاحة» (23).

2.1- جبر ضومط وفلسفة البلاغة: من بلاغة الجملة إلى بلاغة النص الأدبي :

وبهذا الموقف يترجم (ضومط) رؤية لفيف من كتّاب عصره رفض تقليد الأساليب اللغوية والبلاغية العربية العتيقة وجنح نحو الأخذ بمنطق عصرهم، فاللغة «هي أداة، مجرد أداة، لنقل الفكر. وهدف هذه الأداة هو تأسيس تفاهم يتم بين الناس حول إدراك أفكار معينة. لذلك فالمرء لا يجد أي مبرر لاستعمال مفردات وتعابير غريبة عن جو العصر الذي يعيشه، حتّى ولو كانت هذه المفردات والتعابير قد أخذت "شرعيّتها" من التراث» (24).

وعلى الرغم من الاختلاف حول رؤى و منطلقات إحياء البلاغة العربية وتحديثها بين الشيخ (حسين المرصفي) و (جبر ضومط) إلّا أن رؤيتيهما تتقاطعان عند ضرورة اعتناق البلاغة العربية من إसार تدليل الشاهد على صحة القاعدة، وبلورة كتابة جديدة تكسر قوالب الأساليب القديمة (*). وتحزّر طرائقها من طقوس السّجع، فبلوغ الفصاحة في العمل الأدبي مرهون بنقل الفكرة أو المعنى من خلال الضروري فقط من الأبنية الأدبية، وهذا هو المبدأ الأول في الفعل البلاغي الذي يعبر عنه (ضومط) بالاقترصاد على انتباه السّامع.

أفضل وأيسر وأفصح في الكتابة المعاصرة من الكلمات المشتقة من أصل يوناني أو لاتيني» (18).
وبتأثير من بعض الفلسفات الوافدة إلى الثقافة العربية في أواخر القرن التاسع عشر، وبخاصة الداروينية والسبسيّة كان (ضومط) يرى أنّ الفعل البلاغي/الكتابي وحدة لا تتجزأ، وكيان متواشج الأوصال ومترباط الأواصر، «فالبلاغة لا تكون في الكلمة المفردة أو حتّى في الجملة المفردة، إنّها فعل يتجاوز كل الأجزاء ليشمل المجموع بكليّته» (19)، ويبلغ الجُمْل؛ جُمْلَة جُمْلَة والقطّعة؛ قطعة قطعة، والفقرات؛ فقرّة فقرّة... فينتهي الفعل البلاغي عند المقالة والكتاب، وهو فعل لن يتحقق ما لم يكن هناك ارتباط الجمل بالقطعة، والقطعة بالمقالة أو الفصل، والفصول بأبحاث الكتاب على الجملة» (20).

ودرءا لكلّ ترف أدبي عاشه الأدب العربي زمن المماليك والعثمانيين أكّد (جبر ضومط) في أكثر من موضع من كتابه على أنّ الجُمْلَة - بوصفها صورة الفكر اللفظية- ليست ميدانا لبيان المقدرة الفنيّة للكتّاب عن طريق تنميقها بالمحسنات البديعية والصّور البيانيّة، وإنّما تظل غاية الجُمْلَة تبليغ» المعنى المراد على أخصر طريق وأسهله (...). بحيث يكون فهم مجمل المعاني المراد منها يدركه العقل مع أقلّ تعب ممكن» (21)، ومن أجل تحقيق تلك البلاغة المأمولة في الفعل الكتابي يدعو (ضومط) إلى ضرورة «انطباق الصّورة اللفظيّة الكلاميّة على الصّورة اللفظيّة الدّهنية، (...)، [وهذا الانطباق] هو سرّ من أسرار البلاغة، (...) [وركنها] الذي تستند إليه» (22).

ويبدو أنّ لانكفاء البلاغة العربية على ذاتها وتمركزها حول بلاغة المقال، وحرص الخلف من

من تلك الديباجة الزاهية حين وروده على صيغة التشبيه يقترح (جبر ضومط) على القارئ العودة بتلك الاستعارة إلى صورة التشبيه، فيخاطبه قائلا: «رَدَّ هذه الاستعارات إلى التشبيه، وأنظر إلى ديباجة الكلام كيف تحول ألوانها وينقص من رونقها وبهاءها، أوردها إلى الحقيقة فكأنما انتقلت من جمال الربيع وألوانه النائية إلى زمهرير الشتاء واكفهرار مناظره الكالحة» (27).

ويعضد (جبر ضومط) مبدأ (الاقتصاد على انتباه السامع) بمبدأ (الاقتصاد على متأثرية السامع) وهو مبدأ مكمل لتأسيسه النظري لقواعد الفعل البلاغي، ولا يقل هذا المبدأ الثاني أهمية في عملية التأسيس الفلسفي، وحتى يجلي هذا المبدأ يقدم مثالا عمليا قائلا: (ضع زهرة عطر على أنفك، فبعد قليل لا تعود تستشعر برائحتهما)، ويستخلص من هذا المثال أربع ملاحظات:

1- الملاحظة الأولى: ضرورة مراعاة حال المتلقي بعد تلقيه لمعلومات معينة حول موضوع ما، فالقدرة التأثرية لديه قد تكون في حالة ضعف أو حالة قوة مما كانت عليه قبل عملية التلقي، ولذا يجمل بال كاتب أن يضع في اعتباره مدى القدرة التأثرية التي تلي عملية التلقي الأولى، وعليه يدعو (ضومط) الكاتب إلى يكون الفعل البلاغي التالي للمرحلة الأولى أكثر قدرة على الإثارة وشدة المتلقي إلى المادة المقدمة.

2- الملاحظة الثانية: وبالاتماد على فهم جدلي بين المؤثر والمتأثر بحيث يقود كل تأثير إلى تأثر يستهلك القوة المتأثرة ويضعفها، فالقوى الفعلية والبدنية تكون أقوى على الاستجابة والعمل في تلقيها الأول للمعلومات وتكون أقل تفاعلا عند مواصلة واستئناف التأثر، وكلما توالى عليها المؤثرات وتزايدت تسلل إليها الضعف والكلل، ولا يعني هذا

ومن أجل تقريب المقصود بمبدأ (الاقتصاد على انتباه السامع) يستعين (جبر ضومط) بالملاحظة بوصفها إحدى مكاسب العلم الوضعي الذي يبدو تأثيرها (**). واضحاً على أقطاب التحديث في الوطن العربي نهاية القرن التاسع عشر، فيقول: «لا يخفى أنه ليس للقارئ أو السامع في كل هنية معينة إلا مقدار معين من قوة الانتباه. وهذا المقدار لا بد من صرف جزء منه في سمع الكلمات وإحضار صور المعاني الموضوعية بإزائها؛ ولا بد أيضاً من صرف جزء آخر منه في ترتيب تلك الصور بحسب ما لها من العلاقات بعضها ببعض. وما بقي من تلك القوة فينفق في تحقيق الفكر المودع في الجملة وتثبيته في الذهن. وعليه، فبقدر ما يزيد هذا الباقي الأخير تزيد صورة الفكر وضوحاً ورسوخاً في الذهن؛ فيكون من ثم أثره في تحريك النفس أقوى وأفعال أيضاً» (25).

ولزيد من الإيضاح يقدم (جبر ضومط) الاستعارة مثالا لذلك المبدأ، فالاستعارة كما يعرفها البلاغيون هي تشبيه حذف أحد طرفيه، وهذا الحذف يجعل ما يصدق على (التشبيه) من جهة الاقتصاد على انتباه السامع يصدق عليها، فهي متضمنة لفكرة الاقتصاد نفسه، فذكر أحد طرفي التشبيه دون الآخر يبيّنها أعلى مراتب الكلام، ويورد لذلك أبيات (**). شعرية خلص من خلالها إلى أن الصورة التي تجتلي من خلال الاستعارة في البيتين الأولين هي «مما لا يتهيأ إحضارها بواسطة الحقيقة ولو مهما أبعدت الكلام وعرضت عن حواشيه، وما من ذي مسكة يسمع هذه الأبيات إلا ويأخذ منه الاستحسان كل مأخذ ويتخيل له الجميل في أبهى وأبعد مناظره» (26).

وحقّ يتبين القارئ الفرق بين ما تضيفه الاستعارة القائمة على مبدأ الاقتصاد على انتباه السامع على الكلام من رونق وبهاء وبين ما يفقده

03- يمكن اعتبار إنتاج جبر ضومط واحدا من نتائج التفاعل الثقافي الذي حصل بين العرب والثقافة الأجنبية الوافدة على يد الإرساليات التبشيرية والصحافة العربيّة التي اهتمت بتقديم أشياء من الفكر الغربي إلى القارئ العربي، فكان نموذجا لمحاولة تنوير حضاري توسّم فيها كثير من أبناء تلك الحقبة من التاريخ العربي الخير .

04- استطاع (جبر ضومط) بلورة رؤيته التحديثيّة للبلاغة العربيّة بالإفادة من دراسة المفكر الإنجليزي المعروف (هربرت سبنسر) (فلسفة الأسلوب - The Philosophy of Style) التي خلّص من خلالها إلى أنّ «استعمال الكلمات المشتقة من أصل إنجليزي هي أفضل وأيسر وأفصح في الكتابة المعاصرة من الكلمات المشتقة من أصل يوناني أو لاتيني .

05- يرى (ضومط) أنّ الفعل البلاغي/الكتابي وحدة لا تتجزأ، وكيان متواشج الأوصال ومتربط الأواصر .

06- رفض (ضومط) تقليد الأساليب اللغوية والبلاغية العربيّة العتيقة وجنح نحو الأخذ بمنطق اعتناق البلاغة العربيّة من إسهار تدليل الشاهد على صحة القاعدة، وبلورة كتابة جديدة تكسر قوالب الأساليب القديمة .

07- يعضد (جبر ضومط) مبدأ (الاقتصاد على انتباه السّامع) بمبدأ (الاقتصاد على متأثرية السّامع) وهو مبدأ مكمل لتأسيسه النظري لقواعد الفعل البلاغي .

أنّ القوّة المتأثرة تظل في خط تنازلي بل نجدها تتحيّن الفرصة حتى تعود سيرتها الأولى من القوّة والتحفّز واستعادة قدرتها على الاستجابة لقوى التأثير.

3- الملاحظة الثالثة: بتفسير متعمّق للملاحظة الثانية يقدّم (ضومط) شرحا لكيفيّة عودة القوّة المتأثرة إلى سيرتها الأولى بعد نيل قسط من الراحة، فإذا توالى على المتلقي مؤثران أحدهما قوي ، والآخر أشدّ قوة أبان أثر المؤثرين تباعا، الأقوى أولا والأشدّ ثانيا، وأدرك قوة أحدهما مقارنة بالآخر، وهو ما يعني القوّة المتأثرة يكون تفاعلها ناجحا متى تراتب عليها تحقّق التأثيرات ؛ ضعفا فقوّة.

4- يستنتج (ضومط) الملاحظة الرابعة من سابقتها، وهي ملاحظة تعتمد مبدأ الاختلاف بين المؤثرات المتتابة، فالانتقال من أحد الضّدين إلى الآخر يجعلهما أقوى تأثيرا ، وحتى يبسط هذا المعطى يضرب مثلا عن ظهور النقطة البيضاء في الرقعة السوداء، إذ يبدو كأنما زاد بياضها، والعكس صحيح أيضا.

خاتمة؛

ختاما لهذه الدراسة نصل إلى النتائج التالية :

01- لقد كانت دعوة جبر ضومط دعوة صريحة إلى نظرة بلاغية شمولية تهم النص الأدبي بدل الاقتصاد على بلاغة الجملة .

02- شغل جبر ضومط اهتمام البلاغيين ونقاد الأدب ومؤرخيها، فهو تجربة في التنوير الأدبي ، وخطوة باتّجاه تجديد العلاقة بالتراث من خلال الإحياء، وإحدى الإرهاصات المبكرة للحركة النقدية عند العرب في نهاية القرن التاسع عشر ، ودراسة أدبيّة تحديثية استعاد من خلالها صاحبها البلاغة العربيّة لفتح آفاق جديدة في النقد والتعبير الأدبي .

الهوامش والإحالات:

- 11- منير سلطان: «من بواكير الكتابات البلاغية: فلسفة البلاغة لجبر ضومط»، مجلة ضاد، ع3، ص90.
- 12- وجيه فانوس: «جبر ضومط وتجربة التنوير الأدبي»، مجلة الفكر العربي المعاصر، ص89.
- 13- المرجع نفسه، ص89.
- 14- المرجع نفسه، ص89.
- (**)(صاحب مجلة المقتطف البيروتية التي نقلها بعد ذلك إلى القاهرة سنة 1888م، وهي المجلة التي أفاد (جبر ضومط) من المقالات والنصوص التي كانت تنشرها في الجانب التطبيقي من كتابه، هذا بالإضافة إلى المشاركة في نشاطاتها ونشر عدد من مقالاته وأبحاثه فيها.
- Herbert Spencer, (1981) Essay: Scientific, political and speculative, 1st Edition, London, pp333-369.
- نقلا عن وجيه فانوس: جبر ضومط وتجربة التنوير الأدبي»، مجلة الفكر العربي المعاصر، ص94.
- 16- وجيه فانوس: جبر ضومط وتجربة التنوير الأدبي»، مجلة الفكر العربي المعاصر، ص90.
- 17- جبر ضومط(1896)، الخواطر الحسان في المعاني والبيان، المطبوعات المصرية، ط1، بيروت، ص26-27.
- 18- جبر ضومط(1898)، فلسفة البلاغة، المطبعة العثمانية، ط1، صيدا، لبنان، ص58.
- 19- المرجع نفسه، ص58.
- 20- المرجع نفسه، ص58.
- 21- جبر ضومط(1896)، الخواطر الحسان في المعاني والبيان ص9.
- (*)- لقد كانت الدعوة إلى إحياء الأنماط التراثية للكتابة العربية مسيطرة على معظم عقود القرن التاسع عشر وما قبله، وكثيرون هم كتّاب تلك الحقبة الذين حاولوا تقليد الأساليب البلاغية واللغوية التي كانت سائدة زمن المماليك والعثمانيين وما بعده، ويبدو أنّ هؤلاء الكتاب قد اعتقدوا كما كان الحال عند ناصيف اليازجي مثلا، أنّه كلما اقترب الأسلوب المعاصر للكتابة من أفضل نماذج النهج القديم كلما كان تعبير الكتّاب والمنشئين أكثر فصاحة.
- (**)- سنعرض لذلك التأثير عند تفصيل الحديث عن روي الخالدي وقسطاكي الحمصي مع التوقف في هذا المبحث عند تأثير هربرت سبنسر وكتابه (فلسفة الأسلوب) في نهايته. وما يدل على ذلك قوله من كتابه (فلسفة البلاغة)، ص13: «وإذا

- 1- عادل الفريجات: «تجليات النقد الأدبي الغربي في نقدنا المعاصر»، مجلة علامات في النقد، النادي الثقافي الأدبي، جدة، المملكة العربية السعودية، م11، ج41، سبتمبر 2001، ص318.
- 2- نبيل سليمان (1996)، في الإبداع والنقد، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط2، اللاذقية، سوريا، ص121.
- 3- شوقي ضيف (1995)، البلاغة تطوّر وتاريخ، دار المعارف، ط1، القاهرة، ص273.
- 4- مصطفى ناصف (1992)، اللغة والبلاغة والميلاد الجديد، دار سعاد الصباح، ط1، الكويت، ص145.
- 5- المرجع نفسه، ص154.
- (*)- ولد (جبر ضومط) سنة 1859 في بلدة (صافيتا) في شمالي سوريا، وفي سن مبكرة من عمره انتقل مثل كثير من أبناء جيله إلى بيروت حيث تابع تحصيله العلمي وتخرج من (الكلية الإنجيلية السورية) (الجامعة الأمريكية في بيروت لاحقا)، وفي هذه (الكلية) بالذات تابع (جبر ضومط) حياته أستاذا للغة العربية وآدابها، حيث مجال الالتقاء بين الفكر العربي والأفكار الغربية كان واسعا، إلى توفي الرجل سنة 1930.
- 6- محمود منقذ الهاشمي: «النقد العربي الحديث والمناهج الأدبية»، مجلة المعرفة، وزارة الثقافة، سوريا، دمشق، س20، ع238، ديسمبر 1981، ص172.
- 7- السعيد بوطاجين: «حوار مع صلاح فضل»، مجلة الفكر العربي المعاصر، مركز الإنماء الحضاري، بيروت، ع37، كانون الأول/ ديسمبر 1985-كانون الثاني/ جانفي 1986، ص90.
- 8- وجيه فانوس: «جبر ضومط وتجربة التنوير الأدبي»، مجلة الفكر العربي المعاصر، ص90.
- 9- محمود أمين العالم (1989) مفاهيم وقضايا إشكالية، دار الثقافة الجديدة، ط1، القاهرة، ص236.
- 10- سعد البازعي وميجان الرويلي (2002)، دليل الناقد الأدبي، إضاءة لأكثر من خمسين تيارا ومصطلحا نقديا معاصرا، المركز الثقافي العربي، ط2، الدار البيضاء، المغرب، ص237.

- 06- محمود أمين العالم (1989) مفاهيم وقضايا إشكاليّة، دار الثقافة الجديدة، ط1، القاهرة ، ص 236 .
- 07- سعد البازعي وميجان الرويلي (2002)، دليل النّاقذ الأدبي، إضاءة لأكثر من خمسين تيارا ومصطلحا نقديا معاصرا، المركز الثقافي العربي، ط2، الدّار البيضاء ، المغرب، ص237 .
- 08- منير سلطان: «من بواكير الكتابات البلاغيّة: فلسفة البلاغة لجبر ضومط»، مجلة ضاد، ع3، ص90.
- 09- جبر ضومط (1896) ، الخواطر الحسان في المعاني والبيان، المطبوعات المصرية ، ط1، بيروت ، ص 26-27.
- 10- جبر ضومط (1898) ، فلسفة البلاغة، المطبعة العثمانية ، ط1 ، صيدا ، لبنان ، ص58.

اعتبرنا اللغة آلة لنقل الأفكار قلنا أنّه يصدق على هذه الآلة الكلامية ما يصدق على الآلات الميكانيكية من أنّه كلّما كانت أجزاؤها أبسط تركيبا وأتقن ترتيبا زادت فاعليّتها وانتفع من القوة المستخدمة هي في نقلها وإيصال أثرها وكلّما ضاع من القوة فيها إمّا لكثرة أجزائها أو لعدم المناسبة بينها أو لإخلال في وضعها وترتيبها نقص على نسبة ذلك من تأثيرها ونتيجتها .«

22- جبر ضومط، فلسفة البلاغة، ص13 .

(**) - يقول صاحبها:

- لما نظرت إليّ عن حلق المهما وبسمت عن متفتح النوار وعقدت بين قضيب بان أهيف وكثّيب رمل عقدة الزنار عفرت خدّي في الثرى لك طائعا وعزمت فيك على دخول النار
- 23- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
- 24- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
- 25- المصدر نفسه، ص14.
- 26- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
- 27- المصدر نفسه، ص16.

قائمة المصادر والمراجع

- 01- عادل الفريجات: «تجليات النقد الأدبي الغربي في نقدنا المعاصر»، مجلة علامات في النقد ، النادي الثقافي الأدبي، جدة، المملكة العربيّة السّعودية ، م11، ج41، سبتمبر 2001، ص318 .
- 02- نبيل سليمان (1996) ، في الإبداع والنقد، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط2، اللاذقية، سوريا، ص121.
- 03- شوقي ضيف (1995)، البلاغة تطوّر وتاريخ ، دار المعارف، ط1، القاهرة، ص 273.
- 04- مصطفى ناصف (1992) ، اللغة والبلاغة والميلاد الجديد، دار سعاد الصباح، ط1، الكويت ، ص145.
- 05- وجيه فانوس: «جبر ضومط وتجربة التنوير الأدبي» ، مجلة الفكر العربي المعاصر، مركز الإنماء الحضاري، بيروت، ع37، كانون الأول/ ديسمبر 1985- كانون الثاني/ جانفي 1986، ص90.